قصة قصيرة

وطال التيه...

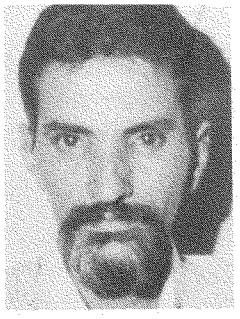

محمد فال عبد الرحمن

ما أبشع أن يُطعن المرء بمدية حادة في صدره، فتتفجر دماؤه القانية من القلب، وتسح أعصاراً حتى يرتوي بها، ثم يجلس عن بعد، يراقب نفسه وهي تغرق عضواً عضواً، في بركة الدماء التي لا يبدو أنّ لها مدى يحدّها... أن يكتشف أنه كذبة صافية كمياه الجدول المنساب بين الصخور، كذبة يلعب بها الوهم، فتكبر المشاهدة وتتمطى المكاشفة بقامتها المديدة، إلى أن تخر المنساة ويكون النشور.

قد يتبادر إلى الذهن أنني بليدة إلى درجة الاحترام، بيد أن الأمر على غير هذا الوجه، فلست إلا شاةً من شياه القطيع الذي يعبر صحراء الدهماء أو الربع الخالي، يحدوه الراعي بسوط من الجمر، صوب المنهل الذي تقاسمته التلال والروابي، فامتصت رمالها كل رحيق الحياة في أحشائه.

ومن الحق بعدئذ أن المنهل ـ الحلم، ظل بعد كل خطوة صوبه يبتعد أميالاً.. وطال التيه حتى شرقت النفس بالظمأ وامتلأت أقطارها به، فنبتت في أكتافها زهور برية يعشو إليها السراب.

كان القطيع في رحلته المهملة، يتحرك عبر أسوار مدينة الحلم الزاهي، وكانت مأساته أن كل قدم توجد خلفها أخرى، وبدل أن تنفصل الثانية عن جاذبية تأخرها المؤتلق، لتتجاوز الأولى، كان العكس يحقق وجوده على الرغم من حرقة الشوق.. طال الضلال فأصبح منطق الأشياء ووجهها المألوف..

قال لي: أنت متفوقة في نتائج الدبلوم، لِمَ أحجمت في تسجيل رسالة ماجستير؟.. قلت، وقد أنهكني السفر إلى غير وجهة وأضعت ذاتي، ذرّات شاحبة تسبح في السراب: وهل تغني الشهادات؟.. قال: ماذا تقولين؟.. عجباً لك.. وهل الحياة غير شهادة تزيّن الغانية بها جيدها؟.. قلت: حسناً، لأسجل رسالة ماجستير إذن.

ولم أسلك غير السبيل التي بها حزت التفوق منذ أن عرفت مقاعد الدرس. وزّعتُ العمل على الأصدقاء والمعارف والجيران.. لم يكلفني الأمر جهداً يذكر، فما أنجزت سوى المقدمة التي ساعد فيها بعضهم. وتم التبويب والترتيب، إلى حد الاعتقاد بأنني هضمت كل شيء.. كنت أراجع الأستاذ المشرف، وأستمع إلى إرشاداته وتوجيهاته، في اهتمام كبير، ثم أسجلها في دفتري الخاص، وأعيد صياغتها وتبييضها في البيت، كما كنت أفعل دائماً.

وربما انتابني الغرور، فاعتقدت أنني فهمت بعضها، لعله أقلّ القليل. وحانت ساعة الحصاد، فارتديت الثوب السحري المهيب، واتخذت مجلسي، وبي شيء يوشك أن يكون ثقة بالنفس، مبعثه السوابق المشرقة.

بدأت المناقشة، واتضح أن أموراً كثيرة غابت عني إبان الصياغة الأخيرة التي اشتركت فيها دون شك، وهي أمور لا تنفع معها الأخطاء المطبعية، (وحقاً

جل من لا يخطىء!)، بيد أن الأمر اتخذ منحى ما عدت أطيقه، فاهتزت السوابق المشرقة، واستحالت رماداً استوطنت روحه الزوابع العاتية.

فكرت وقدرت.. لم يكن بقربي من أية جهة، أحد أستعير منه شيئاً أيّ شيء، كالعادة.. نظرت إلى (المكروفون) الجاثم أمامي في سكون، معبراً عن خجله من الموقف... يجب أن أتخذ قراراً، وتلك أصعب المهمات في حياتي، إذ لم أتخذ فيها قراراً مطلقاً.

أقنعت نفسي بأنّ تصرفاً جنونياً وحده الحلّ.. تلقفت المكروفون وقذفت به وجوه الحضور، عساني أتهم بانهيار عصبي أو طائف من الجنون، ولكن أحداً لم يتحرك.. استغربت هذا الجمود الذي يصفّد الناس، ويدمي نفسي بمخالبه المسننة. ولمعت في خاطري محاولة أخيرة، فشرعت في ممارسة الفعل.

أخذت أخلع ثيابي قطعة بعد أخرى، حتى أصبحت كما أنا، دون زيف أو تلبيس.. تطلعت إلى جسدي في فضول يحترق بتوالي الأنّات.. هذه البشرة المشعّة في حرارة ألسنة اللهب، داخلي.. كومت ملابسي على المكتب، حتى شارفت أن تغطي المكروفون الذي ما يزال أمامي، خافضاً رأسه في ذلة وانكسار.

وفجأة تحول المدرج الفسيح سحابة شك مسكونة بيقين مدخول، أستحم في طواياها مغتسلة من رجس الجاذبية وقداسة الكينونة.. شعرت ببرودة شديدة تسري في أوصالي، فمددت يدي لأتلمس أطرافي، ولكن يدي ظلت في مكانها.. ثم أحسست أنني أتكور وأستدير، وألفّ حول نفسي. وزادت سرعة الدوران والتكوير.. يا «!... ماذا يجري؟.. لقد أصبحت ليمونة، نعم ليمونة في زرقة الفضاء، متغضّنة القطبين بعذاب يتوشّج طيفاً ملتهباً!..

عرفت أن وجودي كان كذبة منذ الأزل.. لم أكن إلا ليمونة ناضجة، كما دمعة فضية وصلت في طريقها إلى حرف الحنك. ولكن، هل تظل الليمونة في الغصن حتى تذوي أشواقها دون أن تلامس شفاه المحبوب؟.. كم مرة تركت الغصن وخرجت من قشرتي ورقصت حتى آخر وحدة حرارية تتشرب الخلايا؟.. ولكن كل ذلك كان هلوسة وهذياناً مدنفاً، يبني ويهدم داخلياً، دون أن يمسّ الأوتار التي تحرك الوجود.

حان موسم العري، فتدفّقت ألوان الطيف سائلاً ينخر الصدأ، ويغني في المروج المخضوضرة، ثم انطلق مؤذناً لصلاة الصبح، ودعا إلى ترك الثياب لدى الوصيد، قبل الدخول إلى الحرم والاعتكاف، لأن عصور البرد والبوار قد ولّت. ثم أقام الصلاة، وتلا في الركعة الأولى نهاية بناء سد غيلان، وفي الثانية افتضاح شهرزاد، وعناقها مع سيزيف الذي زرع الصخرة في قمة الجبل، وانتصب في شموخ.

عجبت لهذا الإمام المصلّي، وطفقت وبي شوق محموم إلى جرعة من الجمر المتوهج، أحاول الانفلات عن الغصن والقشرة حتى أؤمّ المصلّين.. هبطت موجة مطر غاضبة، انتزعتني من الغصن بعنف، فارتطمت بحجر الأرض، فتفجرت عيوناً، وانفتح أحد القطبين، ودوت عاصفة من التصفيق الحاد، وتحلق الناس حولي مباركين، فأفقت من سنة الوهم التي انتابتني مستفسرة. قال أحدهم، وكان صاحب ميلاد الفكرة قبلاً:

ـ مبروك.. كيف أعرف أن تقدير «ممتاز» ينتظرك منذ وقت بعيد..

ـ الامتياز؟!... آه، صحيح، وأنا أيضاً كنت؟؟.. شكراً لك..